المخبر

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ...؟ »
- قرآن كريم -

أنا ما تشاءُ : أنا الخبيرْ ،
صبّاغُ أحذية الغُزاةِ ، وبائعُ الدم والضمير
للظالمين . أنا الغراب
يقتاتُ مـــن جُثث الفـــراخ . أنا الدمـار . أنا الخراب !
شفة البغيّ أعفُّ من قلبي ، وأجنحةُ الذّباب
أنقى وأدفأ من يَدَيَّ . كما تشاء ... أنا الحقير !
لكنّ لي من مقلتيَّ - إذا تتبّعتا خُطاكْ
وتقرّتا قسماتِ وجهكَ وارتعاشَكَ - إبْرَتَينِ
ستنسجان لكَ الشِّراكْ
وحواشيَ الكَفَنِ الملطّخ بالدماء ، وجمرَتينِ
تروّعان رؤاكَ إنْ لمْ تُحرقاكْ !
وتحولُ دونَهما ودونكَ بين كفّيَّ الجريدة
فتندُّ آهتُك المديدة
وتقول : « أصبحَ لا يراني » ...
بَيْدَ أنّ دمـــي يراكْ
إني أحِسُّك في الهواء وفي عيون القارئين .
لِمَ يقرأون : لأن (تونسَ) تستفيق على النضال ؟
ولأن ثوّار (الجزائر) ينسجون ، من الرّمال
ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين ،
كَفَنَ الطّغاة ؟ وما تزالُ قذائفُ المتطوّعين
يصفرْنَ في عَسَقِ (القنال) ؟
لِمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين
كالشامتين ؟
سيعلمون من الذي هو في ضلال
ولأيّنا صدأ القيود ... لأيّنا صدأ القيود ..
لأيّنا ... -
نهض الحقير
وسأقتفيه فما يفرُّ ، سأقتفيه إلى السعير .
أنا ما تشاء : أنا اللئيم ، أنا الغبيّ أنا الحقود ؟
لكنّما أنا ما أريد : أنا القويُّ . أنا القدير .
أنا حاملُ الأغلالِ في نفسي ، أقيّد من أشاء
بمُثلهنّ من الحديد ، وأستبيحُ من الحدود
ومن الجباه أعزّهُنّ . أنا المصير . أنا القضاء .
الحقدُ كالتنّور فيّ : إذا تلهّبَ بالوقود
- الحبرِ والقرطاس - أطفأ في وجوه الأمّهات
تنّورهُنّ ، وأوقفَ الدمَ عن ثديّ المرضعات .

*

في البدء كان يُطيفُ بي شَبَحٌ يقال له : الضمير ،
أنا منه مثلُ اللصّ يسمع وَقعَ أقدام الخفير .
شَبَحٌ تنفّسَ ثمّ مات

واللصُّ عاد هو الحفير .

في البدء لمْ أكُ في الصِّراع سوى أجير

كالبائعات جليبهنَّ ، كما تؤجَّرُ - للبكاء

ولندْبِ موْتى غير موتاهنَّ - في الهند النساء .

قد أمعنَ الباكي على مَضضٍ ، فعاد هو للبكاء !

*

الخَوْفُ ، والدم ، والصَّغار . فأيَّ شيءٍ أرتجيه ؟

فعلى يديَّ دمٌ ، وفي أُذُنيَّ وَهْوهةُ الدماء

وبمقلتيَّ دمٌ ، وللدم في فمي طَعْمٌ كريه !

أثقلْ ضميرك بالأثام فلا يحاسبك الضمير

وانسَ الجريمةَ بالجريمةِ والضحِّيةَ بالضحايا .

لا تمسح الدم عن يديك ، فلا تراه وتستطير

لفرط رُعْبكَ أو لفرط أساك ...

واحتضنِ الخطايا

بأشدِّ ما وَسِعَ احتضانٌ تنْجُ من وَخْز الخطايا .

*

قُوتي وُقوتُ بَنيَّ لحمٌ آدميٌّ أو عظام

فليحتدنَّ عليَّ - كالحُمم المسَّعرة - الأنام

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك ، ولا أكون

وريث قابيل اللعين - سيسألون

عن القتيل فلا أقول :

« أأنا الموكَّلُ ، ويلكم ، بأخي ؟ » ، فأن المُخبرِّين

بالآخرين موكَّلون !

*

قدماي ، متعستان من فرط ارتكاضيَ كالخيول

لأجرَّ مركبةَ الوباء ، ومقلتاي مُضبَّبتانِ

لفرط ما تتنقّلان على الوجوه ، وتَنْفِضانِ

مفارقَ الطرقات .

والهلَعُ الكبيرُ من الزمان

يمتصُّ روحي ، فهي أوشالٌ من الدم والوحول .

*

سَحْقاً لهذا الكون أجمع ، وليحلَّ به الدمار !

ما لي وما للناس ؟! لستُ أباً لكلِّ الجائعين

وأريد أن أروى وأشبعَ من طوىً كالآخرين ،

فليُنزلوا بي ما استطاعوا من سبابٍ واحتقار !

لي حفنةُ القمح التي بيدي ، ودانيةُ السنين

- خمسٌ وأكثر ... أو أقلُّ - هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعثُ في الفلاة

روحَ النماء ، وبالبيادر وانتصار الكادحين !

فليحلموا إن كانت الأحلام تُشبع من جوع !

إني سأحيا لا رجاءً ولا اشتياقَ ولا نزوع ،

لا شيءَ غير الرعبِ والقلقِ المُمضِّ على المصير

ساء المصير !

ربّاه ، إنَّ الموْتَ أهونُ من ترقُّبه المرير !.

ساء المصير :

لمَ كنتُ أحقرَ ما يكون عليه إنسانٌ حقير ؟!

بغداد

بدر شاكر السيّاب